التراث اللغوي وكلمة "حتى" عندنا وعند غيرنا

للدكتور عمر فروخ

أحب أن أبدأ هذا البحث بادئا خفيفاً في ظاهره .

حينما أبدأ ، في أول العام المدرسي ، درس « تاريخ العلوم عند العرب » في الصف الأعلى من كلية الآداب وفي الصف الأعلى من المرحلة الثانوية — أبدأ بالجملة التالية :

ليس هنالك علم عربي وعلم غير عربي . هنالك علم واحد ، وهنالك فلسفة واحدة : علم وفلسفة إنسانيان ؛ ولكننا نحن نقول : علم يوناني وفلسفة يونانية لذلك العلم ولهذه الفلسفة المدونين بلغة يونانية .

إن فيثاغورس اليوناني (ت ٥٠٣ق .م) يقول عن نفسه ؛ إنه أخذ كتاب توصية من التورانس (الحاكم المستبد) في جزيرة ساموس إلى فرعون أحمسو الخامس (٥٧٠ — ٥٢٦ ق . م) حتى يستطيع أن يدخل إلى الهياكل ويتعلم من الكهنة المصريين . ثم إن الشكل الهندسي المشهور باسم « نظرية فيثاغورس » ، ولفظه : « إن مساحة المربع المنصوب على وتر المثلث القائم الزاوية مساو لمجموع مساحتي المربعين المنصوبين على الضلعين الباقيين من ذلك المثلث » ، إنما هو نظرية أشورية أقدم من فيثاغورس ، وكانت تعرف عند الأشوريين باسم نظرية السلّم . إن السلم المستند إلى جدار يمثل وتر المثلث القائم الزاوية . ثم إن الجدار الذي يستند إليه السلم وسطح الأرض الذي يقوم عليه ذلك السلم يلتقيان عند قاعدة الجدار على زاوية نفرضها زاوية قائمة .

وكذلك إذا أنا وصلت في علوم التعاليم أو العلوم العددية (وهي التي تسمى عندنا الرياضيات ، وفي مصر تدعى الرياضة) ثم انتهيت إلى الكلام على الغناء أو الموسيقى قلت أيضا : ليس هنالك موسيقى عربية ثم موسيقى أجنبية عن العرب . هنالك موسيقى فحسب ، إنك إذا شددت وترا على لوح من خشب رقيق ثم نقرته وأنت في مدينة بيروت مثلا ، وبعدئذ حملت هذا الوتر المشدود على ذلك اللوح إلى الصين ونقرته هنالك كما كنت قد نقرته

(*) ألقي البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م

فى مدينة بيروت ، فهل يختلف نغمه ذلك من نغمه فى مدينة بيروت ؟

والقول الصواب : إن هنالك أنغاما ألفها العرب فسميت أنغاما وألحانا عربية ، بينما ألف الهنود أنغاما وألحانا أخرى ناشئة من نقر الوتر الواحد فسميت ألحانا هندية . وليس هذا القول قولى أنا ، بل هو قول قد ورد فى رسائل إخوان الصفا .

أما المثل الذى أريد أناأن أقدمه فهو : أن جماعات من العرب أنفسهم قد أصبحوا يألفون ألحانا كانت تسمى أجنبية من فرنسية وإنكليزية وأميركية وزنجية ، ثم أخذوا يرقصون عليها أو يطربون لها طربا أكثر مما كانوا يطربون لألحان قالوا عنها من قبل إنها عربية ، وقد أحب موسيقار مشهور أن يفتخر فذكر — أو ذكر قوم عنه — أنه «يطعم» أغانيه بألحان يونانية . غير أن هذه الألحان التى سموها يونانية لا يمكن أن تلائم الأغانى العربية إنما هى فى الأكثر ، وفى حالها الراهنة ، قد تحدرت من ألحان تركية تحدرت هى بدورها من ألحان فارسية متأثرة بالغناء العربى الإسلامى .

ثم أرانى أكاد أقول : ليس هنالك لغة عربية ولغة غير عربية . هنالك لغة واحدة مرت فى كل أمة فى ثلاثة أطوار من الطور الأول الطبيعى المنطقى والقائم على الحركات والأصوات إلى الطور الثانى الاجتماعى الذى أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات ولتلك الأصوات الأولى معانى لم تكن لها فى الطور الأول . ثم يأتى الطور الثالث الغنائى أو الموسيقى حينما يحاول الناس أن يغلبوا سهولة اللفظ أو عذوبته على القاعدة الحازمة ، إذا كان فى تلك القاعدة الحازمة شىء من الجفاف أو من العسر أو التنافر فى اللفظ .

وفيما يلى عدد من الأمثلة على غاية من الإيجاز :

١ — من الطور الأول الطبيعى المنطقى :

لا يزال كثير من الناس إذا التقوا بأناس آخرين — وكان بعضهم لا يعرف لغة بعضهم الآخر — حاولوا أن يتفاهموا بعدد من الحركات (كما يتفاهم الخرس فيما بينهم فيقصون أخبارا وحكايات أو يعالجون أمور السياسة بطريقة تدعو الناس القادرين على النطق إلى شىء كثير من العجب) . وكذلك لا يزال عندنا جميعا بقايا من تلك الأصوات فى طورها القديم يتفاهم بها الصغار والكبار ، كأصوات الزجر والحض والاستحسان والاستهجان وما إلى ذلك . وأحب هنا أن أذكر من لغة الصغار صوت «نن» أو «ننى» بمعنى الطعام . ولفظ «نان» (بألف مفخمة) يدل على الخبز فى اللغة الفارسية .

٢ — من الطور الثانى الاجتماعى :

حينما يطالع أحدنا شيئا من اللغات الشمالية فى أوروبة (كالدانمركية والأسوجية والنروجية) وهى لغات لم تفترق إلا

فى مطلع القرن العشـــرين للميلاد — يجد أنها لا تكاد تفترق إلا فى أشياء يسيرة من صيغ الكلمات ثم فى كثرة الإعراب فى بعضها أو قلتّه فى بعضها الآخر — أما السبب الأساسىّ فى افتراقها ؛ فإنما جاء من العنصر الاجتماعىّ الذى جعل للصوت الواحد فيها من قبل أوجها مختلفة من الأداء عند التلفّظ بها .

ويجدر بالعرب أن يشكروا الله تعالى على أن عندهم « لاما » للتعريف واحدة تدخل على الاسم المذكّر وعلى الاسم المؤنّث فى الإفراد وفى الجمع . ومع ذلك فإن نفرا منّا لا يستطيعون أحيانا أن يفرقوا بين اللام القمرية واللام الشمسية . أما إذا نحن أتينا إلى اللغة الآيسلندية — تلك الجزيرة المتطرّفة فى الشمال الغربى من قارة أوروبة — فإن أداة التعريف وحدها تحتاج عندهم إلى كتاب كامل .

فى اللغة الإنكليزية أداة واحدة للتعريف فى صورة هجائها ، ولكن لها لفظين : لفظا إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف صحيح ثم لفظاً آخر إذا هى سبقت اسما يبدأ بحرف علة . وفى اللغة الفرنسية ثلاث أدوات للتعريف : واحدة تدخل على الاسم المذكر المفرد وثانية تدخل على الاسم المؤنث المفرد وثالثة تدخل على الاسم إذا كان جمعا . ثم تكثر مشاكل لام التعريف فى اللغة الفرنسية إذا هى دخلت على اسم يبدأ بحرف علة أو بالهاء . ولكلمة عظم (مفرد عظام) فى اللغة الفرنسية مشكلة قائمة بنفسها ؛ كيف نلفظها إذا سبقتها أداة تنكير أو أداة تعريف ثم كانت هى مفردا أو جمعا .

وفى الإيطالية نحو عشرة أشكال لأداة التعريف لا أخوض الآن فى أوجه الاختلاف بينها .

أما إذا نحن وصلنا إلى أداة التعريف فى اللغة الألمانية فحدث عن الأرض والبحر والجو ولاحرج . إن أداة التعريف فى اللغة الألمانية تتقلب فى صور كثيرة لتلائم الاسم الذى يأتى بعدها فى أحواله المختلفة إذا كان مذكرا أو مؤنثا أو مفردا أو إذا كان جمعا . ونعود إلى هذا الاسم نفسه لنراه من حيث إعرابه : فى حالة الرفع أو النصب أو الجر أو الإضافة ، ففى اللغـــة العربية إعراب واحد للاسم المجرور وللاسم المضاف إليه ، أما فى الألمانية فللجر علامة وللإضافة علامة أخرى . ثم تبدو فى ذلك كله مشكلتان أخريان : إن حركة الجر فى الاسم المؤنث المجرور غير الحركة التى تظهر على الاسم المذكر المجرور ثم تختلف أواخر الكلمات (فى تلك الأحوال المختلفة من الإعراب والتصريف) عند التنكير وعند التعريف . وأنا لا أريد أن أطيل عليكم حتى أستوفى الكلام على ثمان وأربعين حالة للام التعريف فى اللغة الألمانية . ومع ذلك فإن الطفل الألمانى لا يشكو من النحو فى لغته ، كما يشكو اليوم نفر من كبرائنا من النحو العربى . ولقد أخذ نفر من العرب — مع

الأسف الشديد — يجرون الأسماء الخمسة أو بعض الأسماء الخمسة ، مجرى واحدا فى الإعراب . ونحن نشكر الله على أنهم لم يعرفوا الاسم السادس .

وفى هذا الطور الثانى الاجتماعى افترقت معانى الكلمات باختلاف مواطن المتكلمين فأصبح لكل لفظ عند كل قوم معنى مستقل إن لفظة « بور» العربية الدالة على الأرض غير المزروعة تدل فى اللغة الهولندية على «الفلاّح» (بتشديد اللام) وكذلك لفظة« نور» التى تدل فى اللغة العربية على الضوء والضياء واللمعان تدل فى اللغة الألمانية على الاكتفاء ويقابلها فى العربية كلمة « فقط» وفى الألمانية لفظ هو شبايت (بترقيق الفتحة على الشين وتسكين الياء والتاء : spät) ومعناه «التأخّر» يدل فى اللغة الألبانية (بالباء مكان الميم) على الاستعجال (طلب السرعة من الآخرين) .

واللفظ « تير» يدل فى الإنكليزية على «الدمع» وفى الألمانية على «الحيوان» وفى الفرنسية على « إطلاق النار« وعلى »الجذب » وعلى غير ذلك . « والريم » فى اللغة العربية هو الغزال الأبيض والمحبوب الجميل ، كما قال شوقى :

ريم على القاع بين البان والعَلَم
أحَلّ سفك دمى فى الأشهر الحُرُم

أما فى الفرنسية فإن كلمة « ريم » معناها « القافية » (فى الشعر) والاستشهاد على هذا الباب من اللفظ الواحد فى اللغات المختلفة شرحه يطول .

غير أنى أحب أن أورد هنا اختلاف المفسرين فى موقفهم من عدد من الكلمات وردت فى القرآن الكريم، أعربية هى أم غير عربية ، مثل : درهم، دينار، قنطار عليّون، كرسىّ ، جهنم. إن نفرا من المفسرين جمعوا بين المذهبين فقالوا : هى كلمات غير عربية فى الأصل ، ولكن لما جرت على اللسان العربى فى صيغ عربية أصبحت عربية كالكلمات العربية الأصيلة سواء بسواء .

٣ — من الطور الثالث الفنائى أو الموسيقى :

ولما استقرت اللغة على قواعدها المنطقية الطبيعية (فى طورها الأول) ثم على المعانى الاجتماعية للكلمات (فى طورها الثانى) — وهذا ما نسميه « مجازا» ، كإطلاق لفظ «الشمس» مثلا على المرأة الجميلة ، وهو فى المعجم اسم للجرم السماوىّ المنير الذى نراه من أرضنا نهارا — وجد العرب فى لغتهم العربية ، كما وجد آخرون فى لغاتهم أن عددا من القواعد المنطقية يفقد اللغة شيئا من السهولة فى اللفظ ومن العذوبة عند التكلم ، فلجأوا إلى قوانين الغناء أو قواعد الموسيقى يطبقونها على كلامهم ثم يخالفون فى ذلك منطق العقول فى سبيل جمال الألفاظ .

إن الإيطاليين يحبّون تضعيف الحروف فهم يقولون مثلا : فتّوريا مكان فيكتوريا ويقولون فتّورا (مكان فكتور factur

الفرنسية) ، ونحن نقول فى هذه الكلمة فى اللغة العربية : « فاتورة » وأحسب أن الكاف لا تأتى قبل التاء فى كلمة إيطالية بينما عدد من اللغات كالفرنسية والإنكليزية والأسبانية يتقبل توالى هذين الحرفين بالرضا .

وعندنا ، نحن العرب ، فى الصرف والنحو أبواب عناوينها : الإدغام والإعلال والإبدال والممنوع من الصرف ثم نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة بدل الفتحة . ومن الحق أن تجمع هذه الأحوال كلها فى باب واحد يسمى « باب الموسيقى فى اللغة » .

نحن نقول ، مثلا : ضَرَبَ يضرب وعرض يعرض ونزل ينزل وقصد يقصد . ولقد كان من الحق أن نقول : رَمَى يرمِىُ — كما يقول الأحباش — ولكننا اخترنا أن نقول : رمى يرمِى . ثم نحن نعترف أو نقر على أنفسنا بأن عملنا هذا الذى هو « إعفاء الياء من الحركة الخاصة بها » إنما هو لاستثقال الضمة والكسرة خاصة على الياء . نحن نقول مثلا : لن يَرْمِىَ ، ولكننا لا نقول : رَمَىَ . وكذلك نقول : لم يستحِ ، ولا نقول لم يَرْمِىْ كيلا نجمع فى هذه الكلمة ياء وسكونا (أى مداً ووقفا أو حركة قصيرة على حركة طويلة كما يقول نفر من الدارسين باللغات الأجنبية) كل هذا لا تفسير له منطقياً إلا أن نقول إن العرب يستسهلون ذلك .

وأريد أن آتى هنا بمثلين على ذلك من القرآن الكريم :

أولا — إن كلمة « أشياء » ممنوعة من الصرف . واختلف علماء النحو فى تعليل ذلك المنع من الصرف فى « أشياء» اختلافا كبيرا ، ثم لم يأتوا فى جدالهم الطويل بكلام مقنع .

إن هذه الكلمة « أشياء» وردت فى القرآن الكريم مفردة غير مضافة مرّة واحدة فى قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . » (٥ : ١٠٤ سورة المائدة)، ورأيى أن هذه الكلمة منعت هنا من الصرف للموسيقى فقط . ولو أننا صرفناها فى هذا الموضع لوجب أن نقول : « .. عن أشياءٍ إن ...»فتتوالى فى هذا التعبير القصير ثلاث نونات ساكنة . وهذا يسمى فى علم التجويد « الأنانة» (كما كانوا يقولون لنا ونحن صغار) ، وهذا مكروه فى القراءة .

وأصبح منع كلمة أشياء فى هذا الموضع من القرآن الكريم قاعدة أو إضافة على القاعدة فى الأصح ، فقال المقنع الكندى (وهو شاعر إسلامى متقدم ، قبل أيام عبد الملك بن مروان قبل سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٥ للميلاد) :

يعاتبنى فى الدين قومى ، وإنما
ديُونىَ فى أشياء تُكسبهم حمدا

ثانيا — تبدأ سورة « الشمس» من القرآن الكريم (ذات الرقم ٩١ فى المصحف) بقوله تعالى (بعد البسملة) :

«والشمس وضحاها — والقمر إذا — تلاها والنهار إذا جلاها . . (إلى قوله تعالى :

ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها . . . »

ولو أن الآيات الثلاث الأخيرة ، وردت فى النسق التالى :

قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسسها . كذبت ثمود بطغواها .

لاختلف السجع ثم جاءت أربع عشرة آية على قافية مؤسسة (يسبق على رويها — على الهاء فى تلك القافية — ألف) وآية واحدة فى ذلك غير مؤسسة . فأبدلت السين الثانية فى كلمة « دسّسها » ألفاً للتخفيف ، كما قالوا ، أى مجاراة للقوافى الباقية ، أى للموسيقى .

ونأتى الآن إلى « كلمة حتى » .

منذ حين جرى ، فى إحدى جلسات هذا المجمع ، بحث فى تركيب شاع استعماله على أقلام نفر من المعاصرين لنا وتقع فيه كلمة « حتى » وقوعا عده نفر منا غريبا فى الاستعمال الفصيح . وذلك مثل قولهم : جاء القوم حتى كبارهم ؛

ومن متابعة النظر فى هذا الاستعمال فى عدد من الكتب الحديثة وفى الصحف ندرك أن هذا الاستعمال ، فى تركيبه الحاضر ، والذى عده نفر منا غريبا وخاطئا ، إنما جاء من النقل (أى من الترجمة) عن اللغة الإنكليزية لكلمة « even » ومن الغريب فعلا أن تكون اللفظة الإنكليزية «even» واللفظة العربية « حتى » تتقاربان فى أمور كثيرة . فلنبدأ بالكلام على اللفظة الإنكليزية :

من الغريب حقا أن يكون علماء اللغة الإنكليزية قد وقفوا من كلمة « even » موقفا شبيها جدا بموقف الحريصين منا على صفاء اللغة العربية من كلمة « حتى » فقد جاء فى معجم أوكسفورد الكبير (٣ : ٣٣٣ — ٣٣٦) نحو ثلاث صفحات ونصف صفحة من القطع الكبير وبالحرف الدقيق ، وكان مما فيها مايلى :

كثر ورود هذه اللفظة فى الكتب الحديثة وفى تعابير بعيدة عن الاستعمال القديم المألوف ، وهو استعمال يشبه وجها من وجوه استعمال كلمة même فى اللغة الفرنسية . هذا التعبير (الإنكليزى) الحديث يحمل معنى هو «ذكر حالة متطرفة من حكم عام» ، كقولنا مثلا :

« فلان يجادل حتى فى الحقائق البادية للعيان » .

هذا التعبير (الإنكليزى) ليس موجوداً فى اللغات التيوتونية ، أى فى اللغات الألمانية والهولندية والدنمركية وأخواتها . إن اللفظ نفسه موجود فى اللغة الألمانية ، ولكنه يستعمل استعمالا فصيحاً وفى غير المعنى المقصود من الاستعمال الحديث فى اللغة الإنكليزية . ففى الألمانية والهولندية تستعمل اللفظة « eben » اسماً وصفة للدلالة على الاستواء (كاستواء صفحة الجدار ، مثلا) كما تستعمل ظرفاً بمعنى « الآن » أو « حديثاً » (فى الوقت الحاضر) .

واعتراض علماء اللغة من الإنكليز على هذه اللفظة « even » أنها تستعمل فى الكتب الحديثة على أنها « حرف ابتداء » .

أما الذى دعانى إلى عقد هذا الفصل — مع مقدمته الطويلة — فيما يتعلق بتراثنا اللغوى أو بالتراث اللغوى عامة ، أننا نجد نفراً من الكتاب المعاصرين لنا يستعملون لفظة « حتى » حرف جر أو حرف نصب (أو حرف جر ينتصب الفعل المضارع بعده بأن مضمرة) ثم يستعملونه أيضاً « حرف ابتداء » على غرار ما يرد عليه هذا الحرف فى اللغة الإنكليزية .

* * *

ولعل علماء اللغة من الإنكليز لم يكونوا على حق حينما قالوا : إن هذا الاستعمال لكلمة « even » حديث عندهم ، فلقد ورد هذا التعبير عند شكسبير (فى مطلع حياة اللغة الإنكليزية ستمائة وأربعا وعشرين مرة ، وكان فيها أمثلة كثيرة تشبه الاستعمال الحديث لتلك الكلمة عندهم . ثم إننا نجد هذا الاستعمال نفسه اثنتى عشرة مرة فى الترجمة الإنكليزية للتوراة والإنجيل) .

ولا أرى فائدة من إيراد الجمل الإنكليزية هنا . ولكن من المفيد أن نعلم أن هذه الكلمة الإنكليزية المقابلة لكلمة « حتى » (فى استعمالها المتأخر عن القرآن الكريم عندنا) يمكن أن يحل محلها عندهم : مع أن — لو أن — ولا سيما .

* * *

ونعود إلى كلمة « حتى » عندنا .

هذه الكلمة كانت محيرة للفراء يحيى ابن زياد (ت ٢٠٧ هـ) شيخ النحاة الكوفيين حتى قال — أو روى عنه أنه قال — : أموت وفى نفسى شىء من « حتى » .

ولفظ « حتى » عربى يقابله فى السريانية « عدامو » ، وتكون عند السريان ، كما تكون عندنا أيضاً ، حرف عطف وحرف جر .

(ا) فإذا كانت حرف عطف (لاسم على اسم ، لا لفعل على فعل ولا لجملة على جملة) وجب أن يكون بعضها جزءاً مما قبلها ، نحو : « مات الناس حتى الأنبياء » (لأن الأنبياء جزء من الناس) .

(ب) أما إذا كانت « حتى » حرف جر وجب أن يكون للدلالة على الانتهاء إلى غاية . فلا يجوز مثلا أن يقال : « سرت الليل إلى نصفه » (لأن نصفه داخل فى الليل الذى ذكرت أنك سرته) . ولكنك تقول : سرت الليل إلى الفجر (لأن الليل ينتهى بطلوع الفجر) .

أما فى اللغة العربية فإن استعمال « حتى » أوسع مدى .

كلمة حتى فى الاعصر المتوالية :

فى الجاهلية :

لقد مررت ببصرى على المعلقات السبع (كما جمعها الزوزنى) وعلى ديوان بشر ابن أبى خازم (بتحقيق عزة حسن — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى دمشق) وعلى ديوان عروة بن الورد (بتحقيق عبد المعين الملوحى — ونشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق) وعلى ديوان الأعشى (بشرح محمد محمد حسين — المكتب الشرقى للنشر والتوزيع ، بيروت ١٣٨٨ هـ — عام ١٩٦٨ م) . ويجدر بمن يريد التوسع فى هذا الموضوع أن يرجع إلى ما تبقى من الشعر الجاهلى فى غير هذه الكتب التى ذكرتها هنا .

* تأتى « حتى » فى الشعر الجاهلى حرف جر بمعنى « إلى أن » :

— فمن ذلك أنها تدخل على الفعل الماضى مطلقاً ، فقد قال امرؤ القيس فى معلّقته :

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

وقال بشر بن أبى خازم (ديوانه ١٨٤) :

ولقد خبطن بنى تميم خبطة
. . . . . .
حتى سقيناهم بكأس مرة
مكروهة حُسُواتُها كالعلقم

— كما تأتى مقيدّة بالحرف « إذا » على أنه أداة شرط ، وعليه قول زهير فى معلقته :

رعواظمأهم حتى إذا تم أوردوا
غماراً تفرّى بالسلاح وبالدم

ويبدو أن دخول « حتى » على « إذا » الشرطية كثير ، فقد وردت مراراً فى معلقّة لبيد ، من ذلك مثلا ، قوله :

حتى إذا سلخا جُمادى ستة
جزْأً فطال صيامه وصيامها

ومثل ذلك قول الأعشى (ديوانه ٦٧) :

حتى إذ لمع الدليل بثوبه
سُقيت وصَبّ رواتُها أشوالها

— وكذلك تدخل حتى على الفعل الماضى المقيّد بإذا الشرطية التى تلها « ما » الزمانية ، كقول الأعشى (الديوان ٢٩١) :

ركدت عليه يومَها
شمس بحرّ شهابها
حتى إذا ما أُوقِدت
فالجمر مثل ترابها
كلّفت عانسة أمو
نآ فى نشاط هبابها

وتدخل « حتى » على الفعل المضارع فينتصب بعدها بحرف النصب المضمر «أن ».

قال عمرو بن كلثوم فى معلّقته :

ورثنا المجد قد علمت معدّ
نطاعن دونه حتى يبينا

وقال عروة بن الورد (الديوان ٣٠) :

وإن جارتى ألْوَتْ رياح ببيتها
تغافلت حتى يستر البيتَ جانبُه

وكذلك قال بشر بن أبي خازم (الديوان ص ٥٧) يخاطب ناقته :

لمـــا تخالجت الأهواء قلت لها :
حق عليك دُؤُوبُ الليل والسَّهد
حتى تزورى بنى بـــدر فإنهم
شُمّ العرانين لا سود ولا جُعُد

وقال الأعشى فى الغزل (الديوان ص ١٧٥ — ١٧٧) :

لو أسندت مَيْتاً إلى نحرها
عـاش ولم ينقل إلى قـابر
حتى يقولَ الناس ، مما رأوا :
يا عجبـًا للميِّت الناشر

* وتدخل « حتى » على الحرف المشبه بالفعل «كأن» . قال بشر بن أبى خازم :

تغـالى نبتُه واعتمَّ حتى
كأن منـابت العَلَجان شـامُ

وقال الأعشى (الديوان ٤٠٩) :

تدلت عليه الشمس حتى كأنهـا
من الحَر ترمى بالسكينةِ قُورُها

* وكذلك تكون « حتى » حرف جر فتدخل على الاسم الظاهر فتجره . قال عروة ابن الورد (الديوان ١٠٢) :

لكل أناس سـيّد يعرفونه
وسـيدنا حتى الممات ربيع

فى القرآن الكريم خاصة :

وردت كلمة « حتى » فى القرآن الكريم نحو مائة وأربعين مرّة :

— وردت خمس عشرة مرة قبل الفعل الماضى مطلقاً ، نحو :« . . . وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله » (٩ : ٤٨) ؛ « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . . . » (٦ : ٣٤) ؛ « فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » (٣٨ : ٨٢) .

— وجاءت أربعين مرة قبل « إذا » (الشرطية) الداخلة على الفعل الماضى المثبت نحو :« ... فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . . . » (٤٠ : ٣٤) ، « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم . . . » (٣٤ : ٢٣) ؛ « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » (٤١ : ١٩ — ٢٠) .

— ووردت « حتى » ثلاثاً وسبعين مرة قبل الفعل المضارع المثبت فانتصب الفعل المضارع بعدها بحرف النصب المضمر « أن » نحو : « فلا تقعد معهم حتى يخوضوا فى

حديث غيره » (٤ : ١٤٠) ؛ « . . . حتّى يبلغ الكتاب أجله » (٢ : ٢٣٥) ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ : ١١) .

— ووردت مرّتين فى لفظ واحد ، وجاءت قبل « كان » التامة فى الزمن المضارع المنفى ، وذلك فى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتّىً لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٢ : ١٩٢ و ٨ : ٣٩) .

— وكذلك جاءت حتى حرف جر قبل اسم هو « حين » (ستّ مرّات) ، نحو : « فتول عنهم حتى حين » (٣٧ : ١٧٤ و ١٧٨) و (مرة واحدة) فى قوله تعالى : « سلام هى حتى مطلع الفجر » (٩٧ : ٥) .

فى الصدر الأول (أيام الخلفاء الراشدين):

مررت ببصرى على الدواوين التالية : مجموع أشعار الهذليين (الجزء الثانى ، نشره يوسف هل ليبزج عام ١٩٣٣) : ديوان حميد بن ثور (صنعه عبد العزيز الميمنى — القاهرة ، مطبعة دار الكتب عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م) ؛ شعر الحطيئة (تحقيق عيسى سابا — بيروت ، مطبعة صادر عام ١٩٥١ م) ، شرح ديوان كعب ابن زهير) القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م) ، ديوان عمرو بن معدى كرب (صنعه هاشم الطعان — وزارة الثقافة والإعلام، بغداد) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق سيد حنفى حسنين — القاهرة الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٧٤ م) ؛ شرح ديوان الخنساء (بيروت ، دار مكتبة الحياة) .

تكون « حتى » حرف جر يدل على الانتهاء إلى غاية (أى بمعنى : إلى أن) . وتدخل « حتى » بهذا المعنى على الفعل الماضى مطلقاً ، وعلى الفعل الماضى المؤكد بالحرف « قد » ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » الداخلة على فعل ماض أو على اسم ، وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية « إذا » وبالأداة الزمانية « ما » معاً ، قبل فعل ماض أو قبل اسم متمكن أو قبل صيغة من الصيغ أو قبل ظرف . وتدخل « حتى » أيضاً على الفعل المضارع المثبت أو المنفى فينتصب هذا الفعل بالحرف المضمر « أن » . وتدخل أيضاً على « كاد » من أفعال الشروع . وتأتى أيضاً قبل « كأن » . وكذلك تأتى « حتى » حرف ابتداء (وهذا هو المقصود الأول من هذا البحث) .

وفيما يلى شواهد مفردة على الأوجه التى ذكرت :

— قالت الخنساء (الديوان ٥١) :

فبتّ ساهرة للنجم أرقبُه
حتى أتى دون غَوْرِ النجم أستارُ

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٥) :

لقد ركبت العصا حتى قدآوجعتنى
مما ركبت العصا ظهرى وأظفارى

— وقال عمرو بن معديكرب فى صفة الحرب (الديوان ١٥٦) :

الحرب أول مـا تكون فتيّة
تسعى ببزّتهـا لكل جهول
حتى إذا حَمِيت وشبّ ضرامها
عادت عجوزاً غير ذات خليل

— قال الحطيئة (شعر الحطيئة ١١٤) :

كأننى ساورتنى يوم أسألهـا
عُودٌ من الرُّقشِ ماتصغى لراقيها
حتى إذا ما انجلت عنى قعدت على
حرف تهالَكُ فى بِيدٍ تقاسيها

— وقال الحطيئة أيضاً (ص ١٥٦) :

وكأن رحلى فوق أحقبَ قـارح
بالشَّيطين تُهـاقُه التعشيرُ
حتى إذا ما الصبح شَقَّ عَموده
وعلاه أسطُع لا يرد منير
أوفى على عُقُـدِ الكثيب
. . . . . .

— وقال أبو خراش الهذلى (مجموع أشعار الهذليين ٢ : ٧٤) :

أقاتل حتى لا أرى لى مُقاتلاً
وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

— وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٢٣) :

يُغشون حتّى ما تَهِرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٤) :

ليت الشباب عليك الدهرَ مرتجعاً
حتى تعود كثيباً أمُّ صَـبّار

— وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٠٩) يصف مقتولا فى إحدى المعارك وملقى أرضاً :

ومجـدّل لا يستجيبُ لدعـوةٍ
حتى تزول شوامخ الأعلام.

— وقال حسان بن ثابت أيضا (الديوان ص ٢٩٦) :

(يا) خالةً لك بين قُدْسَ وآرةٍ
تحت البَشام ورُفغهـا لم يغسل
تسعى وترقص حول «شىء» حِمارها
حتى يكاد يمسها أو يفعل

— وقال كعب بن زهير (الديوان ص ١٤٦) :

طليح من التَّسعاء حتى كأنه
حـديثٌ بحُمى أسأرَتْها سلالم

* وتكون « حتى » أيضاً حرف جر يدخل على الاسم المتمكن ، أو قبل الاسم إذا كان ظرفاً .

— قال حسان بن ثابت (الديوان ص ٢١٥ — ٢١٦) فى مديح عثمان بن عفان وأهل الشام :

وقـد رضيت بأهل الشام زافرةً
وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إنى لمنهم ، وإن غابوا وإن شهدوا
حتى الممات وما سمّيت حسّانا

— وقال حميد بن ثور (الديوان ١١٧) :

فقلت : امكثى حتى يسار، لواننا
نَحجُّ . فقالتْ لى: أعام وقابل ؟

— وقال المتنخّل الهذلى (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٨٣) :

فالتطّ بالـــبرقة شُؤبوبه
والرعد حتى بُرَقِ الأحول

** وكذلك جاءت حتّى حرف ابتداء عند الحطيئة (ت ٥٩ هـ — ٦٧٨ م) . والحطيئة شاعر مخضرم كان فى الجاهلية ثم أدرك الإسلام وأسلم وعاش بعد ذلك مدة طويلة . وإذا كانت وفاة الحطيئة فى السنة التاسعة والخمسين للهجرة فلا يجوز أن يكون قد عاش فى الجاهلية طويلا ولا أن يكون قد قال فى الجاهلية شعراً كثيراً . والبيت التالى أقدم ما مر بى فى هذا المعنى (شعر الحطيئة ص ١٠٣) :

تركت الميـــاه من تميم بلاقعـــا
بمـا قد ترى منها حلولا كَرَاكرا
وحتى سُلَيمٌ قد أبدت شريدهم
ومن قبل ما قتّلت بالأمس عامرا

فى العصر الأموى :

لم أجد ضرورة لاستعراض عدد كبير من الدواوين الأموية للاستشهاد على الأوجه المختلفة التى ترد فيها « حتى » . إننا نستطيع أن نقول : إن « حتى » ترد فى الشعر الأموى فى جميع الوجوه التى جاءت فيها فى شعر صدر الإسلام الأول . ويبدو بوضوح أن أصحاب القواميس قد تنبهوا إلى هذا الوجه الذى عقدتُ أنا هذا الفصل من أجله . ومع ذلك فقد مررت ببصرى على ديوان جميل ابن معمر وديوان عمر بن أبى ربيعة .

جاء فى « تاج العروس » (الكويت ٤ : ٤٨٧ — ٤٨٨) :

« حتى » حرف من حروف الجر (مثل) : « إلى » ، ومعناه « للغاية » . وهو حرف يخفض . . . (أى) يجر . وقد تكون حرف ابتداء . وفى « الصحاح » : وقد تكون حرف ابتداء يستأنف بها الكلام بعدها ، كما قال (جرير) :

فمـــا زالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وهو قول جرير يهجو الأخطل (ت ٩٠ هـ) ويذكر إيقاع الحجاف بقومه . . . وفى « المغنى » : والثالث من وجوه « حتى » أن تكون حرف ابتداء ، أى حرفاً تبدأ بعده الجمل ، أى تستأنف ، فتدخل على الجملة الاسمية . . . كقول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبّنى
كأن أباها نهشل ومجاشع

غير أن البيت الذى وقعتُ أنا عليه للحطيئة أقدم من بيت جرير بجيل من الدهر على

الأقل ، وهو ــ من هذه الناحية ــ أجل قيمة فى تاريخ تطور الكلام .

وهنـــالك شاهد آخر فى شعر عمر ابن أبى ربيعة (ت ٩٥ هـ) يمكن أن يكون أقدم من بيتى جرير والفرزدق ، ولكنه ليس أقدم من بيت الحطيئة ، هو : (شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، ص ١٥٤ ــ ١٥٥) :

ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم
طرّا وأهل الود والصّهر
حتّى مقـــالتهم إذا اجتمعوا :
أجُننت أم ذا داخل السحر؟

واستعمال « حتى » فى هذا البيت يشبهه تماماً الاستعمال الإنكليزى المستغرب عنـدهم لكلمة « even »(أى إخراج حكم جزئى من حكم عام)، فبعد أن ذكر عمر بن أبى ربيعة أنه خالف أهل قرابته (من جهة أبيه) وأهل الود (الأصدقاء) والصهر (أقاربه من جهة أمه) ، قال : « حتى مقالهم » (أى القليل من فعلهم ، بالإضافة إلى ما كان قد ذكره من قبل) .

ولعمر بن أبى ربيعة بيت آخر (شرح ديوان عمر . . . ص ٤٠٠) هو :

ولو أقسمتَ لا يكلّمُ حتى
عُمْرِ نوح بعيشه ما عصاكا

وبعد : من أين جاء هذا الاستعمال المخالف للمألوف من القاعـــدة العامة، ثم كان عند الإنكليز ــ فيما بعد ــ يشبه ما عند العرب من قبل ؟ ليس من المعقول أن يكون العرب قد أخذوا ذلك عن الإنكليز (قبل أن يكون فى الدنيا لغة إنكليزية) . وكذلك لم يكن من الممكن أن يكون الإنكليز قد عرفوا ما عند العرب من هذا الاستعمال الجانبى لكلمة جانبية .

ولكن يبدو أن هذا الاستعمال عندنا قد تسرب إلى اللغة العربية الفصيحة بالطريقة التى تسرب بها مثله إلى اللغة الإنكليزية ، والتى يمكن أن يتسرب أمثاله إلى كل لغة . ومعنى ذلك أن فى كل لغة فصيحة عدداً من التراكيب الشائعة فى اللفظ تفرض نفسها على اللغة الناشئة ولا نجد نحن لها فى قواعد اللغة تفسيراً واضحاً . هنالك بقـايا يسمونها فى الفرنسية « غالّيّة» (بتشديد اللام والياء معاً : (gallicisme) ، أى صيغاً وتراكيب من لغة تستعمل فى لغة أخرى استعمالا مجانباً ، أى مخالفاً لقواعد اللغة التى انتقلت تلك الصيغ والتراكيب إليها . ويحسن بنا أن نسمى نحن هذه الظاهرة فى لغتنا « الظاهرة الأعرابية » لأن التسمية « ساميات » تسمية خـــاطئة ولا دلالة صحيحة لها .

من هذه « الإعرابيات » عندنا : « اللهمّ » و « ليس من مبرّ مصيام فى مسفر » .

إن كلمة « اللهم » مجانبة لكلمة « الله » فى التهجئة . فالشدة فى الكلمة الأولى على اللام الأولى ، وأما اللام الثانية فهى للرسم

وليس لها قيمة هجائية . ولفظ الكلمة « الاهمّ » . وأما الكلمة الثانية « الله » ، فالشدة فيها على اللام الثانية . وأما اللام الأولى فيختلف فيها صانعو الفهارس . إن نفراً من هؤلاء يجعلون اللام الأولى للتعريف فيأتى الاسم عبد الله عندهم بعد عبد الكريم . وهنالك من يجعل كلمة الله « لفظاً واحداً » فيأتى اسم عبد الله عندهم قبل اسم عبد الباسط

ونرجع إلى كلمة «اللهم» . إنها وردت فى القرآن الكريم خمس مرات ثم هى فى هذه المرات الخمس « منادى » ، ولكن لا تسبقها أداة نداء .

وبالرجوع إلى المعجم الكبير (١ : ٤٤٤ — ٤٤٥) نراه يذكر أن نفراً من النحاة قالوا فى تعليل امتناع أداة النداء قبل لفظ « اللهم » راجع إلى أن الميم تنوب عن أداة النداء . ولكن المعجم الوسيط لا يذكر ذلك فى مطلع باب « الميم » .

وفى المعجم الكبير أيضاً أن « اللهمّ » قد دخلت عليها أداة النداء « يا » فى شعر أبى خراش الهذلى. ثم إن هذه اللفظة قد وردت فى صيغة ثانية هى « لاهُمَّ » ، وهذا يردنا إلى ما سبق إليه قولى من وجوب الشدة على اللام الأولى أو على اللام الثانية .

ولكلمة « اللهم » استعمال آخر يرد فى وجهين : أحدهما قبل أداة الاستثناء ، نحو : « هذا القول صحيح ، اللهم إلا إذا كان فلان قد أخبرنى الخبر ناقصاً » ، وأعتقد أن هذا الاستعمال صناعى جداً . أما الوجه الثانى ، قبل أداة الجواب ، نحو : « اللهم نعم ، اللهم لا » فتدل — كما يقول المعجم الكبير — على « تيقن المجيب » . غير أنى أرى رأياً آخر هو أن « اللهم » هنا هى « المنادى » التابع للأصل العام . وأنا أفهم التعبير : « اللهم نعم » على أنه اكتفاء من قولنا : « اللهم ، اشهد أن هذا الإيجاب (نعم) » .

وبالرجوع إلى رسالتى « صورة الإسلام فى الشعر العربى من الهجرة إلى وفاة عمر ابن الخطاب » (ليبزغ عام ١٩٣٧ م) نرى أن هذه الكلمة قد وردت فى بيت شعر واحد بروايتين (ص ١٣) :

* اللهم لاعيش إلاعيشَ الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة

* لاهمَّ إن العيش عيش الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة

وكذلك يقول عمرو بن سليم الخزاعى :

* اللهم إنى ناشدٌ محمدا *

ولكنّ هذا البيت يروى فى صيغة ثانية « يا ربّ ، إنّى ناشد محمّدا ». هذا بالإضافة إلى أن هذا « اللفظ » ورد (بحسب دراستى السابقة) فى السنوات الأربع الأولى من الهجرة وعند شعراء من المدينة .

وشئ آخر :

إن البيت الذى يورده المعجم الكبير لأبى خراش الهذلىّ :

* إنى إذا ما حدث ألمّا *
* دعوت يا اللهم ، يا اللهما *

أصله (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٧٨) :

إنى إذا ما لَمَمٌ ألمّا
دعوت : يا للهمّ ، يا للهم
لا همّ ، هذا رابع إن تمّا
أتمه الله ، وقد أتمّا
إن تغفر ، اللهم ، تغفر جمّا
وأى عبد لك ما ألمّا

غير أن هذه الأشطر منحولة لأبى خراش (راجع ص ٧٥) . غير أننى لا أعرف إذا كانت هى لغير أبى خراش ثم نسبت إليه ، أو أنها منحولة بمعنى أنها قيلت فيما بعد ثم نسبت إلى أبى خراش . ويلفت النظر أن هذه ستة أشطر ورد فيها اسم الجلالة خمس مرات فى أربع صيغ : يا اللهم — لا همّ — الله — اللهم . ولعل فى ذلك شيئاً من الصناعة النحوية .

فى العصر العباسى وما بعده :

ثم كثر استعمال « حتى » حرف ابتداء ، وقد اتفق أن مررت أنا بعدد من الشواهد ، ولكنى لم أستعرض ديواناً معيناً ولا مجموع شعر معيناً . وقد لاحظت أن هذا الاستعمال كان فى الشعر الأندلسى أكثر منه فى الشعر المشرقى ، أو هكذا يخيل إلى . وسأورد فيما يلى عدداً من الشواهد إيراداً عاماً بلا تعليق . إن استنفاد الشواهد ضرورى قبل التعليق عليها فعسى أن يأتى من يجعل ذلك موضوع دراسة ذات منهج معلوم .

أما الشواهد التى هى بين يدى الآن فهى التى تلى :

— قال أبو نواس ، وهو شاعر مشرقى ، فى الخمّار الذى أخذ منه فى شرب الخمر جميع ثيابه . (رِمته بالكسر من رام يريم : ترك ، فارق) :

فما رِمته حتى أتى دون ما حوت
يمينىَ ، حتى رَيطتى وحذائى

— وقال الطغرائى (وهو أيضاً مشرقى) :

بَخِلْن حتى بإهداء السلام لنا
والبخل فيهن محسوب من الكرم

والأبيات الثلاثة التالية من الشعر الأندلسى

— قال ابن فرج الجيانى :

. . . . . .
وأستحلى به حتى كروبى

— وقال محمد بن مسعود بن أبى الخصال (الذخيرة ، بيروت ٣ : ٧٩٤) :

تقدح الأيام حتى
فى المودّات القديمة

— وقال أحمد بن جعفر :

طَرَب ثنى حتى الجمادَ ترنّحاً
وأفاض من دمع السحائب أعينا

أرجو أن أكون قد كشفت فى هذه العجالة عن جانب من التراث اللغوى العام الذى لا يخص لغة دون لغة ، بل هو عام فى اللغات كلها .

عمر فروخ
عضو المجمع من لبنان